﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

ونعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد يقول قائل : ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً . وزمان الحدث هو يوم القيامة . ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر ، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان ، وله أن يتحدث عن أى أمر بأى صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضى أم الحاضر أم المستقبل ، فقد أوجد كل شىء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل ، وبيده أمر كل ما خلق ومَن خلق . وهو أزلى قيوم ، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف ، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة ؛ ماضٍ : أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم ؛ مثل قولى « قابلنى زيد » ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحاضر : أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه ، أى يحصل الآن مثل قولى : « يقابلنى زيد » وأنت تقصد الحال أى أنه يقابلنى الآن .

إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين . ومستقبل : أى أن يكون الحادث سوف يقع كقولى:« سيقابلنى زيد » . وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذى سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً . إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشىء ، لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث . والذى يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده . ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق فى الكلمة بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه . وهذا لا يعنى أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل ، لا ، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : « إن شاء الله » ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة مَن يملك كل أمر وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

•

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن ، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق ـ سبحانه ـ :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتى به الله على صيغة الماضى ، ثم يقول بعد ذلك : « فلا تستعجلوه » ؟ واستعجال الشىء لا يكون إلاّ إذا لم يكن قد حدث ، فكأن فى الكلام تناقضاً ، ذلك لأنه يقول : أتى ، ويقول بعد ذلك:فلا تستعجلوه ؟

ونقول : إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه . بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها . وعندما يقول سبحانه : « أتى

أمر الله » فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة ، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألاّ يكون . وأى فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان ، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة النساء)

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها . ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ؛ لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تقل متى أو أين ؛ لأنهما به وجدا . والحق يأتى بالماضى لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شىء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

ويؤكد الحق سبحانه فى أى كلام عن عيسى ابن مريم على أنه « ابن مريم » وهنا يسأل الحق عيسى ـ عليه السلام ـ : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلان أمس ؟ وإما أن يأتى السؤال لا ليعلم السائل من المسئول ، ولكن ليقرر السائلُ المسئولَ .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد . وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويوافقه عليها لتستقر لدى التلميذ . وسؤال الله عيسى من النوع الأخير ؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله . وحاول بعض المستشرقين أن يشككوافى القرآن فقالوا : إن هناك تناقضاً فى القرآن ـ والعياذ بالله ـ واستندوا على ذلك بقول الحق :

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ويعتقد ، ولكنه سبحانه يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا ، فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين ، وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول ، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب في أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء ، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه .

إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم ، إنما يبلغ ما أُوحى إليه من ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى رداً على أى تزيُّد من الأتباع : « قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وساعة نسمع « سبحانك » فلنعرف أنها إجمال التنزيه لله ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله ، فلله وجود ، وللإنسان وجود ، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول : إن وجودى كوجود الله ؛ لأن وجود الله ذاتى ، ووجودك غير ذاتى وكل ما فيك موهوب لك من الله ؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله ، بل غناه ذاتى وغناك موهوب منه سبحانه ، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله ، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة ، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله فى نطاق « سبحانه » « وليس كمثله شيء » .

وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله . ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها : « إن كنت قلته فقد علمته » لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . والكل يعلم ارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل . والكل يعلم ـ كذلك ـ أن الله يعلم خفايا الصدور ؛ لذلك يقول عيسى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ويقرر أن الحق

العليم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يخطر له على بال ، وهذه هى العلة فى إيراد ثلاث صور فى هذه الآية .

الصورة الأولى هى قوله سبحانه وتعالى : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وهذا تنزيه من عيسى لربه،والصورة الثانية هى قول عيسى : « إن كنت قلته فقد علمته » ، والصورة الثالثة هى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » . إذن فلا شيء من عند عيسى ، وقد يسأل سائل : وماذا يكون فى النفس ؟ الذى يكون فى النفس هو ما أسِرُّ به ولم يظهر ؛ لأن النفس تُطلق مرة ويراد بها الذات التى تضم الروح والجسد معا ، وعندما تُطلق على ذات الله فنحن ننزهها عن أن تكون أبعاضاً ، ولكنها ذاته المأخوذة فى نطاق التنزيه . والمثال هو قول الحق :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكون فهمنا لمجيء كلمة « نفس » منسوبة لله ، إنه المنزه أن يكون مثلنا ، فلله وجه ولنا وجه ، ولكن وجه الله نفهمه فى نطاق « ليس كمثله شيء » وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله . ونعلم أن لله أسماء أعلمنا ببعضها ، وعَلَّم بعضاً من خلقه بعضها ، واستأثر ببعضها لذاته . وهناك بعض من الصفات لله تأتى لمجرد المشاكلة ، كقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة النساء)

ولا نقول أبداً : إن الله مخادع ، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لذكرها فى مقابلة يخادعون الله . ولذلك لا نأخذ منها اسماً لله ، بل إنه جاء للرد على ما يبدر من أعداء الله .

ويختم عيسى ابن مريم قوله : « إنك أنت علّام الغيوب » و« علّام » هى مبالغة فى ذات الحدث ، ومبالغة فى تكرير الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما فى كونه ، وهكذا جاء القرآن برد عيسى عليه السلام وهو رد يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول .

ويتابع القرآن على لسان عيسى عليه السلام ما يناقض ما قاله بعض من أتباعه

فيقول :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

لقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام - من خلال قوله لربه تبارك وتعالى - المنهج الذى جاء به على الناس جميعا ويلغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه عبد لله وأنه رسوله ، ومادام الحق علام الغيوب فهو أعلم بكل شىء حتى بما فى النفس ، كأنه يثبت أيضاً أن نفسه لم تحدثه بأى خاطر من تلك الخواطر . ويعلن أنه لم يبلغ إلا ما أمر به الله .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والشهيد هو الرائى الذى لا عمل له فى تحريك المشهود إلى غير ما شهده .

ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » وأمر توفية الحق لرسالة عيسى ورفعه إليه ، قد ذكرناه من قبل فى خواطرنا ولكن أضيف الآن بعضاً من اللمحات ؛ لأنى أرى أنّ من حق كل قارىء أو متلق لهذه الخواطر أن يجد الخلاصة الملائمة التى تغنيه عن الرجوع إلى ما سبق من قول فى هذا الأمر ، وذلك حتى تتصل المعانى فى ذهن القارىء .

لقد كان لميلاد عيسى عليه السلام ضجة ، وكذلك كان لمسألة توفّى الله له ضجة .
ولقد شبه الله لقتلة عيسى أنهم قتلوه ، فعندما أرادوا أن يقتلوه دخل خوخة ،

والخوخة هي باب فى باب ، وهذا نظام البيوت القديمة حيث يوجد باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد . وفى سقف هذا البيت فتحة . وعندما دخل رجل يدعى « تطيانوس » طالباً لعيسى عليه السلام نظر عيسى لأعلى ووجد شيئاً قد رفعه ، واستبطأ القوم تطيانوس وخرج عليهم من بعد ذلك ، فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بعد أن ألقى الله شبه عيسى على تطيانوس . أو أن عيسى حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال عيسى للحواريين : أيكم يُلقى شبهى عليه وله الجنة ؟. وكان كل حوارى يعلم أنه لا رسالة له مثل عيسى عليه السلام ، فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟. وتقدم « سرخس » فألقى عليه شبه المسيح عليه السلام وقتل اليهود سرخس . أو أن الذين ذهبوا لقتل عيسى وعرفوا أنه رفع فخافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا به ، ولهذا جاء القتلة بشخص وقتلوه . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود وتيقظت فى نفسه ملكة التوبة فقدم نفسه بدلاً وفداءً للرسول .

ومسألة التوفى ـ كما نعلم ـ هى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل ، ونحن ـ المسلمين ـ نعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السموات وعاد إلينا مرة أخرى ليكمل رسالته ؛ لذلك نصدق أمر رفع عيسى وأن الله توفاه ، أى استرده كاملاً دون نقض للبنية ، وأنه سيعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله .

وإن أمر الرفع فى الإسلام مقبول . فقد رفع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار حوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين فى تلك الرحلة .

نحن ـ إذن ـ نصدق تماماً مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء كأمر وارد وحاصل ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ .

أما مسألة ارتباط نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض بقيام الساعة، فالنصوص فى هذه المسألة من القرآن الكريم محتملة وغير قطعية الدلالة، وقد وردت فى السنة النبوية المطهرة ، ولكنها غير معلومة من الدين بالضرورة فلا نكفر من يتأبى عليه فهمها ، وقد أراد الحق سبحانه الرحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام يأتى به الله فى أسلوب لا يسبب الفتنة . فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقص حكماً، ولذلك جاء الحق سبحانه بمسألة الإسراء بنص قطعى، أما مسألة المعراج فلم تأت نصاً فى القرآن بل جاءت التزاماً لأن الحق سبحانه قال :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) ﴾

(سورة النجم)

وهكذا فالإسراء آية أرضية، والمعراج آية سماوية . والآية الأرضية يمكن أن يقيم رسول الله الدليل عليها، وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ووصفه لهم بقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (١) ﴾ (من الآية ١ سورة الإسراء)

لقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أوصاف القوافل التى رآها فى طريق العودة، إذن كان الإسراء آية أرضية، أما الآية السماوية وهى المعراج فجاءت التزاماً وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام، فمن يرى أن ذلك جاء من طلاقة قدرة الله فهو يصدق ذلك. ومن يقف عقله نقول له : إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين . وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة « توفيتنى » نجد « توفاه » قد تعنى أماته، فالحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (١١) ﴾ (من الآية ١١ سورة السجدة)

والحق سبحانه وتعالى يقول أيضاً :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا

ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

إنه سبحانه يسمى النوم وفاة ، وسماه ـ أيضا ـ موتاً . وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض . ومعنى الموت فى بعض مظاهره غياب حس الحياة ، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة ، إذن فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم . ويقال أيضاً عن الدّين توفيت دَينى عند فلان أى أخذت دَينى كاملاً غير منقوص . وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق جل وعلا القول الفصل :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة النساء)

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فالحق يقول :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح . وقد قال الحق على لسان المسيح : « فلما توفيتنى » أى أخذتنى كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة لا تنقض الرفع . ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم والحق سبحانه يوم المشهد الأعظم جاء به القرآن لنا ليخبرنا بالذى يُثَبّت صدق الإيمان .

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير ويمنع . ويخبرنا الحق من بعد ذلك بما جاء على لسان عيسى ابن مريم فى قوله الكريم :

﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨ ﴾

ولقائل أن يقول : أليس فى ذلك الأمر إشكالٌ واضح ؟ . لقد ادّعى بعض أتباع عيسى أنهم أبلغوا من عيسى أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله . فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة فى هذه الآية .

ونقول : إن عيسى لم يقل : « يا رب اغفر لهم » ولكنه قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » أى أن عيسى قد ترك الأمر لطلاقة المشيئة الإلهية ، وهو كرسول من عند الله يعلم أن رحمة الله سبقت غضبه ، وأن له سبحانه طلاقة القدرة ، فلا قدرة تقيده فطلاقة المشيئة موجودة . وهم عباد لله باختيارهم .

إننا نعرف أن كل خلق الله هم عبيد الله . ولكن المطيعين لله والمؤمنين به خاصة هم عباد الله . إذن فالخلق نوعان : عباد الله ذهبوا لله إيماناً ومحبة وطاعة ، والنوع الثانى هم العبيد الذين يُقهرون لقاهرية سيدهم ، وحتى الكافر لم يكفر رغماً عن الله . بل كفر بما آتاه الله من قدرة اختيار فى أن يفعل أو لا يفعل ، وكان الحق قادراً على أن يخلق خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يأمرهم به الله . وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة .

لكن قدرة القهر تثبت لله صفة القهار على المقهور ولا تثبت صفة المحبة ، فالمحبة تأتى من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان . إنه بذلك آمن بالمحبة لا بالقهر . وهكذا يريد الله خلقه المؤمنين به . إن كل الوجود ـ ما عدا الإنسان ـ مقهور ، ولا يقدر على المعصية : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والهواء ، والسحاب وكل ما فى الكون مقهور لله .

إذن لو أراد الله خلقاً مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيها دون الإنسان ، أما فى الإنسان فقد خلقه الله مختاراً بين الكفر والإيمان حتى يأتى بعض من العباد ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتبعوا منهج الله ، وهم يعلمون أن الله لم يكلفهم ما لا طاقة لهم به . فلا يكلف ـ سبحانه ـ أحداً بأن يموت أو يمرض ، ولا يكلف فاقد آلة الاختيار وهى العقل ، ولا يكلف من لم يبلغ رشد العقل ؛ لأن التكليف للإنسان لا يتم إلا بوجود

ثلاثة شروط : الأول : أن يوجد العقل ، والثانى : أن يكون العقل فى تمام النضج وهو الرشد ، والثالث : ألا تكون هناك قوة تهدد حياته وتقهره على فعل ما .

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف . وهم: المجنون وغير ناضج العقل لأنه لم يبلغ الرشد ، والمقهور بفعل فاعل . وقد أعطى الحق مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لأحد عندالله حجة ، ومن دخل التكليف طائعاً فهو من عباد الله . ومن عصى الله وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين فى كل شىء فيما عدا التكاليف التى خيّروا فيها .

إذن فالعباد هم الذين دخلوا العبادية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر . . أى بين المراد لله وغير المراد لله . فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم على الرغم من علمه بكفرهم : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » ؟. ونقول : إن معنى « العباد » و« العبيد » الذى شرحناه سابقاً هو وضع الإنسان فى الدنيا وما يكون عليه فيها ، ولكن الحوار الذى نقرؤه فى القرآن بين عيسى عليه السلام والحق سبحانه وتعالى يكون فى الآخرة ، وكلنا فى الآخرة عباد طائعون .

وعندما نستقرىء كلمة « عباد » فى القرآن نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التى اختارت مراد الله فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تماماً . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الفرقان)

إنه يأتى هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد . والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين كما يقرر القرآن الكريم :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أما فى الآخرة فكلنا عباد ، وها هوذا الحق سبحانه يخاطب الذين أضلوا غيرهم بقوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

إن الكل عباد لله يوم القيامة ، والكل ينفذ مراد الله ، ولا ولاية لأحد على أى شىء من أبعاضه وجوارحه ، فالعين التى كانت مسخرة للعبد فى الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى الحلال أو يرى الحرام ، هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها فى اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم ، وكل الأبعاض . وتكون النفس الإنسانية فى الدنيا كقائد لكل الأبعاض والجوارح تنفذ أوامر الإنسان سواء للخير أو للشر ، وسواء للطاعة أو للمعصية . لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على كل ما فعل الإنسان ، فليس لأحد مراد غير مراد الله :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

لقد انتهت مرادات البشر وبقى مراد الله فصار الكل عباداً لله . وعلى هذا فليس هناك إشكال فى قول عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » . ونعلم أيضاً أن كلمة « عبيد » تشملنا كلنا فيما نحن غير مخيرين فيه مثل إرادة التنفس أو ميعاد الميلاد أو ميعاد الموت ، ولكن المؤمنين يرتقون من « العبيدية » إلى « العبادية » بتنفيذ منهج الله ، أما الكافرون والعصاة فهم يعصون الله بما لهم من اختيار ويسيرون فى درب العصيان معاندة لمنهج الله . وحتى يثبت الحق لنا جميعاً أن الكافرين مجرد عبيد فهو يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية العميقة ولا يجرؤ واحد منهم أن يصادم مراد الله فى هذه الأحداث التى يجريها عليهم . ولذلك فالمؤمن يشكر الحق باختياره لأن الله حماه بأدوات الاختيار وجوداً ونضجاً وعدم إكراه .

ولنا أن نلحظ أننا كلنا فى يوم القيامة ـ كما قلنا من قبل ـ نصير عباداً لله فلا مراد لأحد فينا على أى شىء ، وكل المراد يكون لله ، وقد أورد الحق سبحانه ما جاء على لسان عيسى عليه السلام فقال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وهذا التذييل لكلمات عيسى ابن مريم لم يأت باعتذار أو طلب الحنان من الله على الذين كفروا بالله وأشركوا به ، فالعزيز الحكيم هو الذى لا يغلب على

أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمى هؤلاء الناس قوة من دون الله ، فهو القادر العزيز ، إن شاء غفر لهم فلا راد لمشيئته .

وبعض السطحيين الذين يتلمسون الأخطاء فى القرآن قالوا : ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ؟ . ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة فى القرآن جاذبة لمعناها ، وكل معنى فى القرآن عاشق لكلمته . ولذلك جاء التذييل فى هذه الآية بما يخدم طلاقة المشيئة فى تعذيبهم أو فى الغفران لهم ، فإن عذبهم فليس هناك قوة ثانية تستطيع أن تحميهم من عذابه ؛ لأنه - سبحانه - عزيز ، وإن غفر لهم فلا توجد قوة أعلى تسأله : كيف غفرت لهم وقد كانوا كافرين ؟

إذن فسبحانه لا يسأل عما يفعل لأنه عزيز حكيم . وأيضا فقولهم : كان الأنسب أن يقول : فإنك أنت الغفور الرحيم . نقول لهم : هى تناسب قوله : (وإن تغفر لهم) ولكنها لا تناسب « إن تعذبهم » فكان لابد أن يأتى تذييل الآية بما يناسب « إن تعذبهم » وبما يناسب قوله تعالى : « وإن تغفر لهم » .

والحق بعد ذلك يقول :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾

نعرف أن هناك صدقاً ينفع يوم القيامة وهو الصدق الموصول بصدق الدنيا . وهناك صدق لا ينفع يوم القيامة ومثال ذلك قول إبليس اللعين كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

مثل هذا الصدق لا ينفع أحداً ؛ لأن الآخرة ليست دار التكليف . لكن الصدق الموصول بصدق الدنيا هو قول عيسى عليه السلام : « إن كنت قلته فقد علمته » . ولذلك يقول الله فى الصدق الموصول : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) .

ذلك أن صدق الصادقين يوم القيامة هو صدق موصول بصدقهم فى زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه » وإن تساءل إنسان : كيف يرضى العبد عن ربه ؟ .

نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم فى الآخرة يمتلئون بالحبور ويقولون :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الزمر)

هذه الآية التى تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله : « ذلك الفوز العظيم » كأن هناك فوزاً سطحياً ، وفوزاً عظيماً . والفوز السطحى : هو ما يعطيه الإنسان لنفسه فى دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل فيبدو ظاهرياً وكأنه قد فاز ، وفى الحقيقة ليس هو الفوز العظيم لأن الندم سيعقبه ، وأى لذة يعقبها الندم ليست فوزاً ؛ لأن الدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره ، وهو نعيم مهدد بشيئين ؛ أن يزول النعيم عن الإنسان ، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم ، أو أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ، ونرى ذلك كثيراً . أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحد ، ولا يقطعه شىء . ويختم الحق سبحانه سورة المائدة بقوله :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان . فالأرض وهى المُلك الأسفل الذى نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان . والسماء وما تحوى وتضم من الملكوت الأعلى ، هما جميعا لله مِلكا ومُلكاً فهو ـ سبحانه ـ الذى يملك كل شىء ويملك كذلك المالك للشىء . وقول الحق : « لله ملك السموات والأرض » ينطبق مع قول المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة المائدة)

أى أنه ليس لشىء من خلق الله أن يخرج عن مرادات الله ، أما فى الدنيا فقد جعل الله أسبابها فى أيدى الناس ، رزق إنسان فى يد إنسان آخر ، ومَلّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب ، ولكن ليس كل مالك مَلِكاً ؛ لأن المَلِك هو الذى يملك المالك ، وهذه سنن الكون . وفى الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين . فكأن الحق أنهى هذه السورة بالحديث عن نهاية الحياة ؛ لأنه سبحانه قد بدأها بالحديث عن أحكام الله فقال :

﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

لقد تكلم سبحانه فى الأحكام عن الصيد فى البر والصيد فى البحر وعن الحلال والحرام من الأنعام وعن النكاح ، وعن كل ما يتعلق بمسئوليات الحياة ، ومَلّكَ بعضنا أمر بعض ، لكن فى اليوم الآخر فالمسألة مختلفة . فبدأ السورة بأمر هو : (أوفوا بالعقود) .

إن كل أمرٍ ورد من الآمر الأعلى ، فالمأمور يفعل أو لا يفعل . فهناك من الناس من يؤمن ومن يعصى ، ومعنى ذلك أن المأمورين لهم حرية الاختيار ، فلو كان الأمر لا بد أن يفعل دون اختيار لكان الآمر قد خلق الخلق وهم مفطورون على أن يفعلوا فيكون بذلك قد قهرهم ، لكن الآمر الأعلى ترك هذه الأوامر لاختيار البشر ، وهم صالحون للطاعة والوفاء بالعقود ، وهم صالحون للمعصية .

لقد بَدأ سبحانه السورة بمنطقة الاختيار في الإنسان التي خلقها الله لينشأ عنها التكليف . وأوضح بعد ذلك أن للاختيار أمداً محدوداً سينتهي ، ويجمع الله الناس يوم ينفع الصادقين صدقهم ويكون الأمر كله لله .

ويختم الحق السورة بقوله سبحانه : « لله ملك السموات والأرض » أي أنه سبحانه يملك الكون كله ، والكون ـ كما نعلم ـ مكون من أجناس متعددة . وأول جنس في الكون هو الخادم الذي لا يُخْدَم هو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أي ليس لها حس . وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات . والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجماد خادماً لكل ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان . النبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان . وكل هذه الأشياء التي تخدم الإنسان لا اختيار لها وكلها مقهورة لخدمة الإنسان ؛ فالشمس لم تغضب يوماً على البشر فلم تمدهم بحرارتها ولا المطية تأبّت على صاحبها .

والإنسان فيه قسمان : قسم مقهور للحق فلا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه أو يسيطر عليه مثل المرض أو الموت وهو في ذلك يشترك مع الحيوان والنبات والجماد ، وقسم يكون الإنسان فيه مختاراً وهو تطبيق المنهج .

إننا إذا نظرنا إلى الجانب الذي قهر فيه الحق الإنسان نجده لمصلحة الإنسان . فالإنسان لا يختار أن يتنفس ولا أن يسري الدم في عروقه ولا أن تعمل كليتاه ، إنه مقهور في كل ذلك . ومن رحمة الله بالخلق أن جعلهم مسيّرين ومقهورين في هذه النواحي ، فلم يجعل تنفس أحد بيد صاحبه ولا جعل القلب يعمل بإرادة الإنسان . والإنسان ـ إذن ـ يُخيّر في مسائل التكليف فقط . وكأن الحق يذكر الإنسان أن منطقة الاختيار هي عقد بين المؤمن وربه ؛ لأن الاختيار سيسلب من العباد يوم القيامة ، ويكون كل العباد مقهورين ويصير الكائن البشري مثل الجماد والنبات والحيوان . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (سورة المائدة)

إنّ الإنسان يوم القيامة سيصير بلا اختيار لأن الحق استعمل « ما » هنا وهى تدل على الأشياء غير العاقلة أى التى لا اختيار لها . كأن العقل له عمل فى الدنيا وهو التمييز بين البدائل ، أما فى الآخرة فالكل متساوٍ أمام خالقه . وعلمنا من قبل الفارق بين « مُلْك » و« ملكوت » . وكلنا يقرأ قول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

كأن الحق ينبهنا إلى أن العالم فيه ما يقع تحت الإحساس والإدراك ، وفيه ما لا يقع تحت الإحساس والإدراك . فالذى يقع تحت الحس والإدراك هو عالم المُلْك . والذى لا يقع تحت الحس والإدراك هو عالم الملكوت . ولا نعرف عن عالم الملكوت إلا ما أخبرنا به الله . وهناك فى عالم الملك ما يخفيه الله عنا ، وسبحانه وحده هو القادر على كل شيء ، والحق يطلب منا أن نعتبر بما فى العالم المشهود من ظواهر . وله سبحانه مطلق العلم بعالم « الملكوت » أى ببواطن هذه الظواهر غير المشهودة . و« الملك » و« الملكوت » موجودان فى الدنيا والآخرة ، إلا أن المُلْك ظاهر والملكوت خفى .

ويوزع الحق سبحانه وتعالى أسباب الملك فى الدنيا بين أيدى خلقه ، ويملك التصرف فيها بين أيدينا وفيها خفى عنا ، ويشاء الحق أن ينهى هذه المسألة من مبررات الخلافة للإنسان على الإنسان فى الأرض فيقول : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » فلله الملكوت ، ولكم بعض الملك أيها العباد فى ظواهر نسبة الأشياء إلى أسبابها وذلك فى الدنيا ، أما يوم القيامة فكل شيء ينتهى إلى الله .

ولكن لماذا قال الحق : « وما فيهن » على الرغم من أن الحق استخلف الإنسان فى الأرض ، والإنسان عاقل وكان من حقه أن يُغلّب فيأتى القول : ومن فيهن ؛ لأن (مَن) للعاقل ، لقد أراد الحق بذلك أن ينبئنا أن الكل أصبح لا اختيار له ، وأصبح مقهوراً على المراد منه فقد تساوى الجميع عاقلهم وغير عاقلهم فيقول لنا : « وما فيهن وهو على كل شيء قدير » .

وبهذه الآية ختمت سورة المائدة . وهى سورة مدنية ، وهى من آخر ما نزل من القرآن الكريم . وفيها التشريع . وفيها التكاليف . وفيها الأحكام . وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بيان اعوجاج أهل الكتاب .

ومن بعد ذلك جاءت سورة الأنعام ، وهى مكية . وجاءت المكية بعد المدنية فى الترتيب المصحفى حسب ما انتهى إليه آخر عرض للقرآن فى آخر رمضان من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام . ومن المعلوم أن القرآن له « ترتيب نزولى » و« ترتيب مصحفى » . والترتيب النزولى حسب ما نزلت سور القرآن فى مكة أو المدينة . ورب قائل يقول : إن الحق أنزل هذا القول الكريم فوق عرفات وهو قوله سبحانه :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

فكيف يقال ذلك ؟ .

نقول : لنفهم معاً معنى الاصطلاح القائل : « مدنى » و« مكى » ، هناك آيات من القرآن نزلت بالمدينة ، وآيات أخرى نزلت بمكة ، وآيات ثالثة نزلت فيما بينهما ، وآيات رابعة نزلت بين السماء والأرض . وجاء الاصطلاح « مكى » على الآيات التى نزلت قبل الهجرة ، وجاء الاصطلاح « المدنى » على الآيات التى نزلت من بعد الهجرة ، وإن نزلت بمكة .

وأراد الحق أن يكون للقرآن ترتيب نزولى وترتيب مصحفى ، وقد شاء سبحانه أن يعدل بالقرآن ميزان الكون الإنسانى المضطرب ، واضطراب الكون الإنسانى إنما يكون بواسطة أناس لا يؤمنون بإله ، أو بأناس يؤمنون بإله ويشركون معه غيره فيعبدون أوثاناً ، ويقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » أو بأناس يعبدون النار ، أو بأناس تابعين لمنهج سماوى ولكن حرفوا فيه قليلاً أو كثيراً .

إننا نجد أن الأقرب إلى الإيمان بالله هم الأجناس الذين آمنوا بالرسالات السابقة على رسول الله ، فقد جاءتهم الرسل ومعهم المعجزات ، ومعهم كتب المناهج ، والمنطق يقتضى أن يكون هؤلاء هم الأقرب للإيمان من غيرهم ، ولذلك كان من المطلوب أن نواجه أولاً الوثنيين ونصفى المعركة مع أهل الكتاب من بعد ذلك ؛ لأن أهل الكتاب لهم إلف بنزول منهج السماء إلى الأرض بواسطة الرسل .

إذن ففى نزول القرآن كانت الأمور المكية التى تتعلق بالعقيدة الأساسية هى الظاهرة . وهى الاعتراف بألوهية واحدة تحكم الكون . أما فى المدينة فقد ناقش الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب فى كل أمور الدين بعد أن استتب أمر التوحيد .

لقد كان هذا الترتيب منطقياً مع هذه الحقيقة . فقد كان فى العالم موجتان اثنتان : موجة إلحاد ، وموجة تغيير فى منهج الله السماوى . ولذلك كانت قلوب المسلمين مع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب ؛ لأنهم على الأقل يؤمنون بإله ، وأن الإله يرسل الرسل ومعهم المنهج الإلهى والمعجزات الدالة على صدق رسالتهم ، وحتى الذين انحرفوا من أهل الكتاب كانوا يتمسحون فى هذا الكتاب المنزل إليهم بالرغم من أنهم حرفوه .

لقد وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقف بجانب الروم عندما واجهوا فارس . وعندما هزمت الروم حزن المسلمون وفرح الكفار ؛ لأن الروم كانوا أهل كتاب ، إنهم كانوا نصارى ، وكانت هزيمتهم تعنى انهزام منطق السماء أمام منطق الإلحاد ؛ لذلك حزن المسلمون ، وفرح الكفار . وأراد الله أن يصور لنا الموقف ، وأن يوجه قلوبنا إلى الذين يؤمنون أيضاً بأن هناك إلهاً حتى ولو كانوا قد أخطأوا فى تصور هذا الإله وفى البلاغ عنه ، أو أخطأوا فى تأويل ما جاءت به الرسل فقال سبحانه :

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة الروم)

إنَّ المسلمين يفرحون بنصر الروم على فارس ؛ لأن الروم لهم علاقة بالسماء ، والرسل ، والمناهج ، والوحى . وجعل الله الأمر واضحاً هكذا لكى يبين موقفنا وليجعلها إعجازاً لكتابه ولرسوله ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان موجوداً بمقر الدعوة وهو الجزيرة العربية ، وليس عنده سفارات ولا مخابرات ولا مكتب حربى حتى يأتيه بالأخبار وينبئه عن استعدادات الروم التى تجرى لرد الهزيمة .

هذا الرسول يتنبأ بخبر معركة قادمة بين الفرس والروم ، وينتصر فيها الروم ، معركة تحدث بعد سبع أو تسع سنوات . وعندما راهن سيدنا أبو بكر رضى الله عنه المشركين على ذلك ، وجعل بينه وبينهم خمس سنين أجلاً لغلبة الروم وظهورهم على الفرس ، ذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل » فكانت مائة بعير إلى تسع سنين .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم كلام الواثقين ، لأنه ينقل الخبر عن الله ، وجعله الله قرآناً يتلى ويصلى به ، ومحفوظاً أبد الدهر ، ولا يمكن أن يكذب هذا القائل إنه ـ سبحانه ـ هو الذى يملك ميزان الكون كله ، وأى إنسان من رجالات الحرب المعاصرين لا يمكنه أن يتنبأ بمصير معركة قادمة ، على الرغم مما قد يُجمع لها ويحشد من معلومات عن القوة والعدة والعتاد . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ عن الله وهو واثق تمام الوثوق مما يبلغ .

وقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الخصم الإلحادى ، وكان قلبه مع أهل الكتاب ، ونرى أيضاً أن أهل الكتاب كانوا يستبشرون بمجىء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم يقل بعض أهل الكتاب وهم اليهود فى المدينة للأوس والخزرج : قد أظل زمان نبى يُبعث وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم . ولكنهم كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك ؛ لأنه سيسلب منهم السيادة ، والسلطة الزمنية .

إذن فنزول القرآن أولاً كان فى مكة ، ومن بعد ذلك نزل فى المدينة . لكن فى الترتيب المصحفى ـ كما قلنا ـ جاءت المدنيات أولاً ، وبعد ذلك جاءت المكيات . وذلك حسب ما أراد الله عندما راجع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن مع جبريل عليه السلام فى رمضان الأخير من حياة الرسول الكريم .

إنّ أصل الإيمان واحد ، وهو الإيمان بإله ، ووحى ، ورسل ، ومنهج ، وكل ذلك له فائدة إقامة نظام يحكم الحياة . وهو نظام ضرورى لتنصلح حال الحياة سواء آمن الناس بإله أو كفر بعضهم . وجاء هذا النظام الذى يحكم الحياة فى السور المدنية أولاً ولم يغفله الحق فى بعض السور المكية . إنّ الحق شاء لرسوله أن يوحد القلوب

المؤمنة بإله واحد أولاً ليواجهوا معسكر الإلحاد . ولكن هناك من اختلف وتخلف عن مؤازرة موكب الإيمان .

وهكذا تنتهى خواطرنا حول سورة المائدة ، ومع أن سورة المائدة مدنية وسورة الأنعام مكية إلا أن السياق بين تذييل المائدة وافتتاح الأنعام فيه اتساق واضح . فالحق يقول فى آخر سورة المائدة :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ويقول سبحانه فى أول سورة الأنعام :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

فسبحانه وتعالى قدير ويملك كل الكون ، ولم يأخذ ذلك الملك افتئاتا أو ادعاء ، ولكنه جل شأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو الذى جعل الظلمات والنور .

